إسهامات النُّخَب التقليدية القسنطينية في كتابة التاريخ المحلي: قراءة في أعمال البابوري وبن جلول

فارس كعوان جامعة سطيف-2-

ملخص: لا يزال الكشف عن إسهامات النُّخَب في الحياة العامة وخصوصا منها الجانب الثقافي في العهد الاستعماري بمنأى عن التناول في دراسة خاصة، و لم يتم سوى إعداد محاولات محتشمة لدراسة جهود بعض الأفراد في نطاق منعزل، وهذا ما جعلنا نحاول التركيز في هذه الدراسة على شخصيتين من قسنطينة لم تحظيا بدراسة خاصة هما البابوري وبن جلول، وهما من الشخصيات التي تصنف ضمن النُّخَب ذات الثقافة التقليدية، وهما وبرغم المساهمة الهامة التي قدماها في مجال التأليف التاريخي إلا أنهما بقيتا بعيدا عن المعالجة التحليلية

Résumé:

La mise en évidence des contributions des élites dans la vie publique et particulièrement dans la vie culturel durant la période coloniale, est demeuré loin d'être l'objet d'une étude spéciale, et il n'a été élaboré que quelques modestes tentatives d'étudier les efforts de quelques individus dans un cadre isolé, et c'est ce que nous a emmené à porté notre attention dans cette étude sur deux personnage de Constantine: Elbabouri et Ben Djelloul, ces deux qui sont classés parmi l'élites de la culture traditionnelle. Malgré leur contribution dans le domaine de l'écrit historique, ils n'ont pas bénéficié d'une étude analytique qui leur est approprié.

1- البابوري ومخطوطه حول تاريخ قسنطينة:

1-1 البابوري:الشخصية والمسار

لا نملك عن البابوري غير معلومات قليلة ومتفرقة بإمكاننا من خلالها إعداد ترجمة مقتضبة له فهو محمد بن أحمد البابوري[1] الذي وصفه فايسات بأنه" شخصية متعلمة جدا وهو من أهل قسنطينة، وبسبب كبر سنه فقد كان شاهد عيان معاصر للأحداث التي كتب عنها[2] "والعبارة الأخيرة توحي لنا بأن البابوري قد ولد في الفترة الأخيرة من العهد العثماني، أي في عهد صالح باي" 1772 – 1791 " كما أن عبارة شخصية متعلمة تعني أن البابوري قد درس على مشايخ

العلم في قسنطينة في تلك الفترة لكن رغم هذا فإننا نجهل الكثير عنه وعن حياته حيث:" إنه لم يرد له ذكر إلا نادرا في الوثائق المعاصرة "[3] حسبما ذكر سعد الله .

وجاء ذكر البابوري كناسخ لأحد العقود الإدارية في أواسط شهر محرم سنة 1247 هـ/ 1831 م أي في عهد الحاج أحمد باي، مما يعني تبوئه لمنصب كاتب إداري أو خوجة كما كان يعرف هذا المنصب[4]، وهذا ما يؤكده مخطوط لابن المبارك اعتمد عليه شيربونو[5] قال فيه إن البابوري كان يشغل منصب خوجة لدى قائد الدار محمد بن البجاوي الذي قتل في الدفاع عن قسنطينة سنة 1837، كما ذكر شيربونو أن محمد البابوري كان الوسيط بين هذا المستشرق الفرنسي وابن المبارك من أجل الحصول على مخطوط الدرة الثمينة[6]، وكان البابوري حيا سنة 1858 كما يستنتج من كلام فايسات، وكان مُسنًّا.

1-2-أهمية مخطوط البابوري حول تاريخ قسنطينة :

ذكر فايسات أن شيربونو- الذي حل بقسنطينة بعد احتلالها عند إنشاء كرسي اللغة العربية بها - هو الذي كلّف البابوري سنة 1848 بالكتابة عن تاريخ قسنطينة، ووصف المخطوط بأنه في حوالي الثلاثين ورقة، وإنه لم يطبع وإنما تناقله النساخ فوقعت نسخة منه في يد فايسات فقام بترجمتها وإدماجها في كتابه:" تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية"[7].

وجاءت ترجمة فايسات لمخطوط البابوري في ست وخمسين صفحة، وسماه:" **صفحة من تاريخ حكم أواخر بايات قسنطينة من سنة 1229 هـ إلى سنة 1243 هـ**" أي من عهد محمد شاكر باي سنة 1229 هـ/ 1814 م إلى سنة 1243 هـ/ 1827 م حين تولى الحاج أحمد باي، ولا تزال هذه الترجمة المخطوطة في أرشيف مقاطعة روديز مسقط رأس الكاتب الفرنسي[8] وهذا يعني أن البابوري لم يضع عنوانا لكتابه هذا وإلا لكان أشار إليه شيربونو أو فايسات أو بيربروجر الذين استفادوا منه.

وصف فايسات أسلوب المخطوط بـ" السيء والممل " لأنه يورد في الصفحات الأولى – التي اعتبرها غير ذات قيمة كبيرة - بعض كرامات أولياء قسنطينة مع تراجم بعض العلماء والمرابطين كالمرابط الشهير سيدي أحمد الزواوي، والكتاب يعوزه- حسب فايسات- الترتيب الكرونولوجي للأحداث، كما إنه لم يتناول سيرة كل بايات قسنطينة[9].

ورغم كل هذا فإن كتاب البابوري يبدو ذا قيمة تاريخية هامة، فقد استفاد منه شيربونو الذي كان مهتما بتاريخ قسنطينة ولكنه لم ينشره، ولكنه كما يبدو قد اقتبس منه فقط بعض المعلومات التاريخية في بحوثه، أما فايسات فقد لجأ إلى ترجمته كاملا وإدماجه في بحثه السابق عن قسنطينة كما فعل مع كتاب العنتري، كما استفاد منه بيربروجر حين كان يجمع نصوصا حول حملة أوريلي على الجزائر سنة 1775 ونشر نصا منه بالفرنسية في المجلة الإفريقية.

ومن خلال نُقُول فايسات من هذا المخطوط -والتي للأسف لا يشير إليها دائما- أمكننا أن نعرف أن البابوري اهتم بسرد بعض التفاصيل التي لم يذكرها معاصروه كالعنتري وابن المبارك، ومع أن البابوري تناول الفترة الممتدة فقط بين 1814 و 1827 إلا أنه أشار إلى أحداث أخرى تسبق هذه الفترة في سياق حديثه عن المرابطين المذكورين سابقا، وذكر بيربروجر الذي استفاد من مخطوط البابوري -وقد كانت نسخة منه بالمكتبة العمومية بالجزائر- إن هذا الأخير به تراجم لبعض المرابطين وهم أحمد الزواوي ومحمد بن بودراهم والشيخ محمد بن عياد وسيدي عبيد والشيخ الحسناوي كما أن به فصلا عن حكم أحمد شاوش الملقب "باي راسو" [10].

والبايات الذين أرخ لهم البابوري هم : محمد شاكر باي " 1814 – 1818 " وقارة مصطفى " من يناير إلى فبراير 1818 " وأحمد باي المملوك " من فبراير إلى نهاية أغسطس 1818 " و ومحمد باي الميلي " من نهاية أغسطس 1818 إلى يوليو 1819 " وإبراهيم باي الغربي " من يوليو 1819 إلى أغسطس 1820 " وأحمد باي المملوك للمرة الثانية " من أغسطس 1820 إلى يوليو 1822 " و إبراهيم باي الكريتلي " من يوليو 1822 إلى ديسمبر 1822 " و محمد باي مناماي " من ديسمبر 1822 إلى أغسطس 1826 " و الحاج أحمد باي " من أغسطس 1826 إلى 13 أكتوبر 1837 "[11]

ونقل بيربروجر ما كتبه البابوري عن الزواوي وقال إن البابوري اعتمد على خدم الشيخ الزواوي وهم من رجال أولاد بن رحمون، ومن خلال ما ذكره البابوري عن الشيخ الزواوي يتبين لنا أنه لم يخرج عن روح عصره في الإيمان بالخوارق والكرامات فهو يقول مثلا: " من بين كرامات المرابط سيدي الزواوي الذي ضريحه محل زيارة ويتوافد عليه أهل قسنطينة يمكن أن نذكر ما قام به حين هجم النصارى على الجزائر [يقصد حملة أوريلي سنة 1775] فقد كان الشيخ يملك فرسا رائعة تدعى الرقطاء اختفت في إحدى الليالي من إسطبله فأمضى خدمه كامل الليل في البحث عنها وفي اليوم الموالي عادوا إلى منزل سيدهم خجلين من فشلهم في العثور عليها وكانوا ينوون عدم إخبار الشيخ باختفائها لكنهم ذهلوا حين رأوا الفرس في مكانها بالإسطبل ..... "[12]

وأورد فايسات نصا كاملا من مخطوط البابوري حول علاقة الشيخ أحمد الزواوي بحسونة بن حسين باي "هذا الأخير الذي حكم المقاطعة من 1792 إلى 1795" وعزا فيه البابوري للشيخ الزواوي تنبؤه بنهاية مأساوية لحسونة هذا بعدما حذره من لبس البرنوس الأسود كما نبهه إلى أنه في حال توجه إلى منطقة سيدي مبروك فعليه أن يكون قلبه نقيا خاليا من الأفعال الخبيثة، لكن مخالفة حسونة لهذه النصائح أدت – حسب البابوري- إلى هلاكه[13].

كما نقل فايسات ما كتبه البابوري عن الشيخ الحسناوي[14] واستفاد مما كتبه البابوري عن الشيخ محمد بن عياد في رواية سماها :" حنينة عذراء قسنطينة ."[15]

وكما قلنا سابقا فإن النسخة المترجمة إلى الفرنسية من كتاب البابوري عن تاريخ قسنطينة لا تزال موجودة بقلم فايسات أما النص العربي المخطوط فالأرجح أنه ضاع كما ضاعت الكثير من مؤلفات ذلك العصر .

ومهما يكن فإن المنهج الذي سار عليه البابوري في تأليفه هو منهج تقليدي كان الكتاب المسلمون قد تعودوا عليه فهو يترجم في بداية مخطوطه للعلماء والأولياء ثم ينتقل للحديث عن البايات وأعمالهم، ونجده متأثرا كثيرا بالمسلك الصوفي والعوالم الغيبية في تفسيره للحوادث التاريخية

2- مصطفى بن جلول ومخطوطه حول تاريخ قسنطينة :

2-1- المؤرخ القاضي: لمحة عن مساره

كتب الضابط الفرنسي شارل فيرو عند وفاة هذا الشيخ مع الشيخ المكي البوطالبي[16] يقول:" إن أحسن رثاء يمكن أن يوجه لهذين العالمين اللذين توفيا تقريبا في نفس الفترة هو الإشارة إلى المثل الذي صار يضرب في مدارس قسنطينة بعد وفاتهما وهو" إن العلم عند المسلمين[يقصد أهالي الجزائر] انطفأ مع سي مصطفى بن جلول وسي المكي البوطالبي"[17] فمن يكون هذا الشيخ الذي استحق هذه المكانة ؟

ينحدر مصطفى بن جلول من عائلة بن عبد الجليل العريقة بقسنطينة التي عرفت بابن جلول وهي عائلة علمية قديمة بقسنطينة قال عنها نور الدين عبد القادر " وأسرة بن عبد الجليل وعرفت بابن جلول واستمر فيها العلم زمانا مديدا"[18].

ولكن الأسرة لم يظهر دورها جليا إلا منذ القرن الثامن عشر، حتى أننا لا نجد لأحد من أفرادها ذكرا في منشور الهداية للفكون المؤلّف في القرن السابع عشر، وتعود أصول هذه الأسرة – حسب رواية الشيخ مصطفى بن جلول التي أفاد بها شيربونو– إلى المغرب الأقصى[19]، وكان الجد الأول قد استقر بقسنطينة في نهاية القرن 9 هـ/ 15 م ، ويُعدّ عباس بن علي بن جلول أول أفراد الأسرة الذين دخلوا في خدمة المخزن التركي، فقد شغل منصبا هاما هو منصب الباش كاتب لدى الباي حسين بوكمية الذي حكم من سنة 1713 إلى سنة 1736 [20].

واشتهر من عائلة بن جلول عدد من العلماء منهم الشيخ شعبان بن جلول الذي وصفه الورثلاني في رحلته بقوله :" العالم على الإطلاق والأديب بالاتفاق سيدي شعبان بن جلول قاضي الحنفية"[21] الذي تتلمذ على المفتي محمد بن علي الجعفري البوني القسنطيني وأجازه إجازة عامة بعد سنة 1139 هـ/ 1727م إثر القراءة عليه سنين عديدة كما ذكر الكتب التي قرأها عليه كالألفية ومختصر خليل وألفية العراقي والمحلى في الأصول وصغرى السنوسي والفلك وصحيح البخاري[22] وتوفي شعبان بن جلول بعد أن عاش مائة سنة[23] شغل خلال 67 سنة منها منصب

القاضي الحنفي ورُقي نتيجة خصاله التي صار يضرب بها المثل في قسنطينة[24] كما برز اسم المرابط المسعود بن جلول الذي كانت له إدارة شؤون زاوية عائلته سنة 1833 [25].

وبالنسبة للمؤرخ محل الدراسة واسمه كاملا هو مصطفى بن محمد[26] بن عباس بن علي بن عبد الجليل المعروف بابن جلول[27] فقد ولد بقسنطينة سنة 1768[28] وتلقى تعليمه ببلده في زاوية العائلة التي تعرف بزاوية الزواوي سيرا على العائلات العلمية الكبيرة في قسنطينة[29]، ولعلّه درس على عمه الفقيه أبي العباس أحمد بن عباس بن علي بن عبد الجليل الذي توفي بقسنطينة في 21 صفر سنة 1201 هـ/ 1786 م "[30] كما يكون قد تلقى العلم على جملة من مشايخ العلم بقسنطينة فعمله في التدريس والإمامة والقضاء يؤكد أن ثقافته الدينية والأدبية لم تكن متواضعة.

وتولى مصطفى بن جلول منصب باش كاتب لدى الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة[31]، وفي عهد الاحتلال الفرنسي تولى القضاء الحنفي بالمدينة سنة 1265 هـ/ 1848 م الذي ظل فيه إلى غاية سنة 1273 هـ/ 1856 م[32] وفي 19 نوفمبر 1849 م عُين إماما بزاوية رضوان براتب قدره 200 فرنك، وفي 01 يناير 1850 م تم تجديد إقراره كمدرس بجامع سيدي لخضر براتب قدره 200 فرنك وهي وظيفة كان يمارسها شرفيا مع وظيفته كقاضي[33].

وشارك مصطفى بن جلول في عدد من أحداث عصره فقد وجدناه يقوم بتحرير رسالة إلى السلطات الفرنسية هي عبارة عن شكوى بعثها أعيان قسنطينة ضد حمودة بن الشيخ الفكون الذي عينته الإدارة الفرنسية حاكما على المدينة[34]، كما وجدناه من بين الموقعين على رسالة تهنئة بعثها أعيان قسنطينة سنة 1856 م في الذكرى الأولى لتولي نابوليون الثالث منصب إمبراطور فرنسا [35]، وقد توفي الشيخ مصطفى بن جلول في خريف عام 1864م عن عمر يناهز 96 سنة ودفن بقسنطينة بمقبرة عائلته[36].وترك الشيخ بن جلول عددا من الآثار نعرف منها تقريضه لرسالة " تحفة الناظرين في إبطال القول بنقض الحكم بصحة الوقف بعد موت الواقفين" لمصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي المتوفى سنة 1252 هـ/1832 م[37] وكتاب عن تاريخ قسنطينة .

2-2- مخطوط بن جلول حول تاريخ قسنطينة :

كان الشيخ مصطفى مهتما بالتاريخ حيث ذكر الكاتب الفرنسي فايسات في كتابه "تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية" أنه استفاد من تأليف تاريخي حول قسنطينة ألفه الشيخ مصطفى بن جلول، واعتمد عليه فايسات في كتابه المذكور[38].

وحصل الضابط الفرنسي فيرو من السيد حسن بن جلول الذي كان يشغل منصب خوجة في إدارة الشؤون العربية بقسنطينة أوائل الاحتلال على تقييد تاريخي به وصف للحملة الفرنسية على الجزائر بقلم الشيخ مصطفى بن جلول، وقام فيرو بترجمة النص العربي إلى الفرنسية ونشره في

مجلة الجمعية الأثرية والتاريخية لمنطقة قسنطينة سنة 1865 بعنوان: "احتلال الجزائر سنة 1830 حسب شهادة كاتب مسلم"وذكر فيرو أن هذه الوثيقة منتخبة من أوراق محفوظة لدى عائلة بن جلول.

وهكذا يبدو أن تأليف بن جلول الذي يعد مفقودا اليوم كان ذا قيمة تاريخية كبيرة بحكم أنه اعتمد على أوراق العائلة التي اشتغل جل أفرادها في الإدارة وكتبوا ملاحظات حول الأحداث التي عرفها الإقليم في مختلف العصور وهذه الملاحظات قام بجمعها وتنظيمها سي حسن بن جلول[39] ومعنى هذا إن عمل الشيخ بن جلول ظل عبارة عن أوراق ووثائق بها حوادث تاريخية مختلفة.

وذكر شيربونو أن مصطفى بن جلول قد أرسل له وثيقة تتحدث عن علاقة جده عباس مع الباي وكيف حوّل الباي جامع سوق الغزل الذي بناه عباس بن جلول سنة 1730 إلى اسمه الخاص، جاء فيها ما يلي:" إن جدي السيد عباس بن علي جلول أصيل مدينة فاس بالمغرب قد تخلى عن المذهب المالكي واعتنق مذهب أبي حنيفة وشغل وظيفة باش كاتب لدى باي قسنطينة حسين بوكمية، ولما كان يتمتع بثروة كبيرة فقد كان يعلم أيضا كيف ينفقها في عمل شريف فقرر سنة 1143 هـ/1730 أن يبني على نفقته الخاصة مسجدا بحي سوق الغزل ولتخليد ذكرى هذا العمل الخيري وضع عباس بن علي جلول أعلى الباب الرئيسي نقيشة بخط مشرقي ذو أناقة نادرة".

ولتثبيت هذا العمل الجدير بالتقدير فقد استدعي علماء قسنطينة لتوثيق عقد بهذا العمل تم حفظه في وثائق العائلة، لكن الباي كما ذكر الشيخ مصطفى "لم يتوان عن إظهار حسده أمام شهرة باش كاتبه فاستدعاه إليه وقال له: يا عباس لقد عشنا إخوة في الحياة الدنيا فلنكن كذلك في الحياة الأخرى ومن اللائق أن نتقاسم النفقة حتى أحصل على حصتي من البركة التي خصك بها الله " وهكذا تنازل عباس بن جلول عن تدوين اسمه في مدخل هذا المسجد لصالح الباي بوكمية[40].

ويذكر ناصر الدين سعيدوني إنه اعتمد على إحدى الوثائق التي قال إنها كانت ضمن أوراق عائلة القاضي سيدي مصطفى بن جلول وهي وثيقة عربية نادرة جاء فيها ما يلي: " الحمد لله ذكر لنا جذر الولاة ومنبع الفضل والخيرات سيدنا صالح باي أبقى الله تعالى وجوده أن النصراني الذي جاء مع جماعة منهم لأجل بناء القنطرة المعروفة قديما بالمشبكة عند حي باب القنطرة، أخبره أن تاريخ بنيان القنطرة في السابق كان كما هو مكتوب بالسرياني بعد... سيدنا عيسى... بثلاثمائة وخمسة وثلاثين سنة في أوائل جمادى الثانية 1206 هـ/ 1792 م "[41].

ويذكر فايسات الذي استفاد أيضا من مخطوطة الشيخ مصطفى بن جلول إن هذا الأخير قد كتب عن التنظيم الإداري للبايلك في العهد العثماني، وأسهب في ذكر الدنوش الذي كان يتوجب على بايات قسنطينة دفعه مرة كل ثلاث سنوات إلى باشا الجزائر، وقال إن هذه الضريبة أي الدنوش صنفان واحد في الربيع والآخر في الخريف، والدنوش العادي أي ذلك الذي يكون فيه الدفع معهودا لخليفة الباي يضم الضرائب المالية والعينية وهو يتكون كما يلي: مائة ريال بسيطة

"أي حوالي 250 ألف فرنك فرنسي سنة 1830 " وخمسون فرسا وخمسون بغلا جيدا وثلاثمائة بقرة وثلاثة آلاف من الغنم وعشرون قربة من الزبدة المذابة وعشرين كيلا من المْحَوّر "نوع من الكسكسي" وعشرون كيلا من الفريك وعشرون قفة من التمر الجيد وخمسون قفة من الزيتون الجيد وجلود الأسود والفهود وبرانس الجريد وحياك للتغطية وسبحات من العنبر والمرجان ومختلف أنواع العطور والطرابيش الحمراء المصنوعة في تونس .

وأضاف بن جلول إن هذه الضريبة لا تذهب كلها لخزانة الدولة، فالباشا وكبار الموظفين يأخذون نصيبا هاما منها، ونصيب الباشا عشرة آلاف ريال بسيطة ومائتا محبوب من الذهب وخمسون فرسا وعشرة بغال وخمسون بقرة ومائتان من الخراف وقربتين من الزبدة المذابة وكيلتين من المْحَوّر وكيلتين من الفريك وخمسة وعشرون قفة من التمر وخمس قفف من الزيتون وأربع برانس وأربعة حياك ومسبحتين من العنبر ومسبحتين من المرجان ونصيب من عطور الورد والياسمين وجلدين من جلود الأسود وجلدين من جلود النمور وأربع دزينات من الطرابيش الحمراء

وأما الخزناجي والباش آغا ووكيل حرج باب الجزيرة فيأخذ كل منهم مائة ريال بسيطة ومائة محبوب وفرسين وبغلين وعشرة أبقار وخمسون غنما وقربة من الزبدة المذابة وكيلة من المْحَوّر وكيلة من الفريك ودزينة من الطرابيش الحمراء التونسية وبرنسين وحايك ومسبحة من العنبر وأخرى من المرجان وعطور وخمسة وعشرون قفة من التمر وبضعة قفف من الزيتون وجلد أسد وجلد نمر.

وأما خوجة الخيل ووكيل بيت المالجي ووكيل الباي [ممثل الباي في قصر الداي] فيلأخذ كل واحد منهم ألف ريال بسيطة وخمسون محبوبا وفرسا واحدا وبغلا واحدا وقربة من الزبدة المذابة وكيلة من المْحَوّر ونصف كيلة من الفريك وخمس قفف من التمر ونصيب من الزيتون وبرنسا وحايكا وست طرابيش وسبحة من العنبر وسبحة من المرجان وبعض العطور .

وتوهب هذه الهدايا –حسب بن جلول دائما– من قبل الخليفة شخصيا بدءا من الباشا ثم بقية الموظفين الكبار الذين ينتهزون هذه المناسبة لتناول الضيفة الفاخرة التي تعد لمثل هذه المناسبة وعدا كل الهدايا السابقة فهناك هدايا أخرى أقل قيمة من الأولى تسلم لبعض الموظفين الصغار كخوجة الترك وخوجة العرب ووكلاء حرج دارل السلطان والخزندار ومماليك القصر والصبايحية والترجمان وآغا القل وآغا دار سركاجي والمزوار وقايد الزبل .

ومن جهته فالباشا لا يترك خليفة الباي يعود خالي الوفاض فهو يقوم بإهدائه قفطان تجديد التولية ولباس كامل وبندقية وحصان وياطقان أي سيف، كما يقوم كبار الموظفين بإهداء الباي عبر خليفته بعض البنادق، وبعضهم يهديه أشياء ذات قيمة كلّ حسب مكانته ودرجته[42].

ويواصل بن جلول قوله إنه في اليوم الثامن لوصول الخليفة للجزائر فإنه يغادر عائدا لقسنطينة وعند اقترابه منها فإن الباي وكامل حاشيته يذهبون لاستقباله ولما يصل هؤلاء يترل الخليفة من حصانه لتحية الباي مسلما إياه برنوس الشرف والهدايا الأخرى التي أحضرها ثم يدخل الموكب إلى المدينة مع هتافات الناس وصوت قرع الطبول ودوي المدافع، وفي دار الباي تجدد مشاهد التولية ويقوم الباي بترع برنوسه ووهبه للخليفة الذي يجلب إليه في أبهة كبيرة .

وإضافة إلى دنوش الربيع فإن الخليفة يقود معه القوات التي تصحبه من الجزائر وقوامها ستون خيمة والتي تعوض نُوبة السنة الماضية وتعين في العمليات العسكرية واستخلاص الضرائب، ولما يقوم الباي بقيادة رحلة الدنوش في ربيع ثالث سنة فإن الضرائب تتضاعف قيمتها نتيجة غلاء الهدايا التي يتوجب عليه اصطحابها معه.

ويقول بن جلول إن موكب الدنوش حين يصل إلى ذراع لحمر قرب بني عباس فإنه يتوجب على الأتراك تقديم ضريبة لزعماء أولاد مقران لضمان عبور موكب الدنوش سالما عبر البيبان وتتمثل الضريبة في بعض الأبقار والأغنام وهذا يدل على استقلال بعض القبائل عن الأتراك في العهد العثماني[43] .

وقد ارتأينا اقتباس عبارات بن جلول كما أوردها فايسات رغم طولها وذلك للتعرف على الدقة المتناهية التي تميز بها مصطفى بن جلول في تقييده للأمور الإدارية والاقتصادية .

واعتبر الشيخ مصطفى بن جلول في مخطوطه إن الاحتلال الفرنسي للجزائر قضاء وقدر فنجده كتب يقول: "بمشيئة الله تعالى استولى الفرنسيس على الجزائر" كما اعتبر أن مسألة نصب الفرنسيين لمدافع خشبية فوق منشآتهم بالقالة هو ما عكّر- حسبه - صفو العلاقات مع الإيالة فقد كان الفرنسيون" أقاموا بالقالة دارا واسعة لتكون مسكنا لتجارهم الذين يتاجرون مع الأهالي في الجلود والصوف والشمع والسلع الأخرى، والحال أن سكان المناطق المجاورة لم يتوقفوا عن إقلاق هؤلاء الأوروبيين بسرقتهم والقدوم كل ليلة للطواف حول بنايتهم، وجعلت هذه الجولات الليلية الفرنسيس يأخذون في الليل كما في النهار إجراءات الاحتراس وحتى يبعدوا ويمنعوا عدوان الأشرار صنعوا مدفعين من الخشب لهما هيئة مدافع حقيقية وقاموا بوضعها في نوافذ بنايتهم"[44] .

ويذكر بن جلول أن العلاقات مع فرنسا انقطعت أربع سنوات وخلال هذه المدة فإن العساكر كانت تجول دوما على الساحل لمنع السفن الجزائرية من ركوب البحر وخلال هذه المدة أُعلم الباشا بطريق مؤكدة أن الفرنسيين يستعدون للهجوم عليه فقام حينذاك باستدعاء البايات للتعجيل بمساعدته بقواتهم، فجمع الحاج أحمد باي قوات القبائل مثل: الحنانشة والحراكتة وأولاد عبد النور والتلاغمة وعامر والسحاري والحشم الذين يقودهم أولاد مقران، وكل الدايرة والزمول والزناتية والصراوية وأولاد بوسلاح الذين يقودهم الآغا بن الحملاوي، وزودت كل هذه القبائل

بثلاثة آلاف وبضعة فرسان دون حساب المترجلين الذين لحقوا بالمحلة خلال سيرها نحو الجزائر، كما صحب الباي فرقة جنود أتراك لحراسة موكب الضريبة التي تعوّد على دفعها لخزينة الباشا[45].

ويمضي بن جلول في سرد تفاصيل في غاية الأهمية عن الحوادث التي سبقت الاحتلال كما يذكر أعمال المقاومة المنظمة ضد الإنزال الفرنسي في سيدي فرج، ومشاركة عدد من القبائل في هذا المجال مثل فليسة وبني جناد وقبائل جرجرة، وجهود الحاج أحمد باي في هذا المجال، لكننا نجده يثني على الفرنسيين فيقول :"ولو استخدم الفرنسيس الذين كانوا بقربنا سلاحهم فإنهم كانوا سيقدرون في تلك اللحظة أن يهلكوا كل الفارين منا، ولكن على العكس فقد توقفوا ليتركوا لنا الوقت لنبتعد، وكانت لدي فرس جعلها صخب البارود ومنظر المعركة نفورة، ويضاف إلى كل هذا كبر سني الذي انتزع مني كل نشاط، وقد تكبّدت مشقة كبيرة للابتعاد عن ساحة المعركة وكانت تفصلني بضعة خطوات عن الفرنسيس ورغم هذا فإنهم لم يسببوا لي أي أذى وقد أثبت لنا هذا العمل الكريم أن الفرنسيس لهم قلب شريف وإنهم لا يقومون بالحرب لمجرد القتل."[46]

ثم يذكر إن وفدا من الأعيان دعوا الداي حسين لعقد الصلح مع الفرنسيين ، ويقدم مثالا عن عدم مبالاة الداي نقله له أحد شهود العيان فيقول:" عندما دخلوا لدار الباشا وجدوه يتحدث مع ساعاتي كان يحرك رقاصات الساعة وساعات موسيقية وقد قال له الباشا: ضع هذا الرقاص في هذا المكان وضع ذاك في مكان آخر، وظل رجال الوفد الذين كانوا منشغلين بعمق بجسامة الوضع حائرين أمام عدم اكتراث الباشا الذي كان يمضي وقته في تفاهات في وقت عصيب وخرجوا مذهولين دون آن يعرضوا سبب مسعاهم لكنهم قالوا أن قدرة الباشوات قد اضمحلت وإنهم صاروا منذ ذلك الحين غير قادرين على حكم البلاد"[47].

ثم يتتبع بن جلول مسار الأحداث وانتصار الفرنسيين وتراجع المقاومة ووعود الفرنسيين باحترام شخصية وثروة الجزائريين ومنحهم الأمان لداي الجزائر الذي رخصوا له أن يلجأ إلى المشرق مع عائلته وثروته، وتراجع الحاج أحمد باي إلى قسنطينة وصراعه مع الأتراك من أجل توطيد سلطته في الإقليم[48].

وهكذا تتضح لنا الأهمية التاريخية لمخطوط الشيخ مصطفى بن جلول الذي هو عبارة عن وثائق عائلية وإدارية تخص تاريخ قسنطينة في العهد العثماني ويشمل جوانب مختلفة، ورغم أن صاحبه من ذوي الثقافة التقليدية إلا أن مساهمته تظل ذات قيمة كبيرة نظرا للأدوار التي لعبها أفراد الأسرة في الإدارة المحلية.

الخلاصة:

وفي ختام هذه الدراسة نخلص أن المساهمات التي قدمتها النُّخب المحلية التقليدية القسنطينية في الكتابة التاريخية لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاوزها والتجني عليها كما فعلت عدد من الكتابات الاستعمارية، التي استثمرت هذه الكتابات في إنجاز أعمالها حول قسنطينة ثم عادت واتهمت هذه الكتابات بالقصور، كما اتهمت أصحابها بالجهل، مثلما فعل كل من الضابط فيرو والكاتب فايسات، بل يجب أن توضع هذه المساهمات في مكانها الصحيح كمصادر محلية شاهدة على فترة تاريخية لا يزال يسودها الغموض في كثير من جوانبها .

الهوامش:

[1] – توحي هذه النسبة بأن أصل عائلته من جبال البابور بين سطيف وجيجل وإن كان هو نفسه من مواليد مدينة قسنطينة حسبما ذكر فايسات.

[2] – Vayssettes: Histoire des derniers beys de Constantine, in Revue africaine 1858 p 109.

[3] – أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 2000 ، ص 352.

[4] **–L.J. Bresnier: Chrestomathie arabe, Alger, Bastide libraire édit. 1867 p 48**

[5] – هو مخطوط" الدرة الثمينة في التعريف بمشايخنا أهل قسنطينة " وهو مخطوط مفقود كان شيربونو قد اعتمد عليه ولعله ضاع معه ، أنظر :

– A .Cherbonneau: Biographie du vénérable cheikh Ben El Habib taleb de la medersa de Sidil–Akhdar, nouvelles annales des voyages, tome 4, 1850, p 33.

[6] **– Cherbonneau : Exercices pour la lecture des manuscrits arabes, librairie Hachette, Paris 1853, p 41.**

[7] **–Vayssettes : Histoire des derniers beys de Constantine, in revue africaine 1858 p 109.**

[8] **–Vayssettes : Histoire de Constantine sous la domination turque, de 1517 à 1837, Paris, éd Bouchéne , 2002, p 17.**

[9] **– Vayssettes : Histoire des derniers beys de Constantine, p 109.**

[10] **– Berbrugger : Expédition d'Oreilly en 1775, partie légendaire, revue africaine1865, p304.**

[11] **– Vayssettes : Histoire de Constantine sous la domination turque, pp 190– 228.**

[12] **– Berbrugger : Opcit , p 304 – 305.**

[13] **– Vayssettes : Histoire de Constantine, p 157–158.**

[14] **– Ibid, p 213**

[15] **– Vayssettes : Hanina ; la vierge de Constantine , Alger ,Juillet saint–lager libraire 1873, p1.**

[16] **– Feraud : La Prise d'Alger raconté par un algérien, in R.S.A.C 1865, p 68.**

[17] – من الشخصيات البارزة في قسنطينة خلال القرن التاسع عشر والتي لم تحظ للأسف الشديد بأي دراسة، وقد جمعنا عنها معلومات لا بأس بها نأمل أن ننشرها قريبا.

[18] – نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية مطبعة البعث 1965 ، ص 214.

[19] **– Cherbonneau : Inscription arabe de la province de Constantine, in annuaire de Constantine 1855 – 1856, p 103.**

[20] **– Feraud : Opcit, p 67.**

[21] **– الورثلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ، ط2 ، دار الكتاب العربي، بيروت1974، ص 692.**

[22] – وكان الشيخ شعبان مهتما بالنحو والألغاز ولذلك كلف سالم بن محمد من أولاد عيسى بن لكحل سنة 1146 هـ/ 1734 م بنسخ كتابين لبركات بن باديس الأول في تراجم النحاة عنوانه" التنقيح في التعريف ببعض أحوال رجال طالعة التصريح على التوضيح" وهو كتاب ترجم فيه تراجم مختصرة لعلماء النحو الذين يتعرض لهم أثناء تدريسه لهذه المادة بقسنطينة ومنهم حوالي 28 ترجمة، والكتاب الثاني في الألغاز بعنوان " نزع الجلباب في جمع

ما خفي في الظاهر من الجواب" ويقع في 21 صفحة، أنظر: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص 44.

[23] – لا يقدم فيرو الذي ذكر هذه المعلومة أي تاريخ للميلاد أو للوفاة.

[24] – **Feraud ; Opcit , p 68.**

[25] – **L.J. Bresnier Opcit , p 52.**

[26] – كما جاء في رسالة قرض بها كتابا لمصطفى باش تارزي .

[27] – كما ذكر هو للمستشرق الفرنسي شيربونو ، أنظر :

Cherbonneau : Inscription arabe de la province de Constantine, in annuaire de Constantine –1856–1857 , p121

[28] – **Feraud : Opcit, p 68.**

[29] – **Feraud : Opcit, p 68.**

[30] – **Cherbonneau : Inscription arabe, p 121.**

[31] – **Feraud : Opcit , p 68**

[32] – محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر أو تاريخ مدينة قسنطينة ، مطبعة البعث ، قسنطينة، 1980 ، ص 331.

[33] – **Megnaoua,C: Le registre du Caid el Bled de Constantine, in recueil de Constantine, 1929 p 27.**

[34] – جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830–1914، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1993 ، ص 101.

[35] – أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1، قسم 1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1992، ص 391.

[36] – **Feraud : Opcit, p 68**

[37] – سليمان الصيد : نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار ، ط1، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد، بوزريعة 1994 ، ص 99–100.

[38] – **Vayssettes : Histoire de Constantine,p20.**

[39] – تذكر المصادر أن العائلة قد احتكر أفرادها منصب الباش كاتب لدى بايات قسنطينة.

[40] – **Cherbonneau :Sur une inscription arabe trouvée à Constantine, in annuaire de Constantine 1855 p 103–106**

[41] – ناصر الدين سعيدوني : ورقات جزائرية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ط 1 ، 2000 ، ص 294.

[42] – **Vayssettes : Histoire de Constantine,p32.**

[43] – **Ibid ,p33.**

[44] – **Feraud : Opcit, p 70.**

[45] –**Ibid , p 71–72**

[46] – **Ibid , p 73 –74.**

[47] – **Ibid , p 74**

[48] – **Ibid , p 75.**